

مدارج الثورة في الخطاب الشعري الجزائري

The stages of the revolution in the Algerian poetic discourse

د. حمزة بسو^{*1}

1 جامعة سطيف 2، (الجزائر)، h.bessou@univ-setif2.dz

تاريخ النشر: 2021/12/30

تاريخ المراجعة: 2021/09/24

تاريخ الإيداع: 2021/04/29

ملخص:

يغلب على تصوّر كثير من الدارسين أنّ الشعر الثوري الجزائري منحصر في ما تمّ تدبيجه وتداوله خلال مرحلة الثورة؛ انطلاقاً من اندلاعها إلى غاية الاستقلال، وفي ذلك حدٌّ من امتداده الزمنيّ وتطوّره الطبيعيّ عبر مراحل ثلاث: ما قبل الثورة، أثناء الثورة، ما بعد الثورة. ركّوحا إلى سبق، تسعى هذه الدراسة منهجياً، وفيما سَطَّر لها، إلى تقديم صورة دقيقة للتدرّج الطبيعي للثورة عبر الخطاب الشعري الجزائري، مع بيان التطوّر الوظيفي والفنيّ. الكلمات المفتاحية: مدارج الثورة، الخطاب الشعري الجزائري، الشعر الجزائري، الوعي، الالتزام.

Abstract:

Usually many scholars linked revolutionary poetry to the stage of the revolution; That is, the poetry accompanying the revolution from the outbreak of the revolution to the point of independence. They examined it in a narrow temporal field that does not express its truth and its dimensions, and in this narrowing its scope through poetic rhetoric, and limits its natural development through three stages: before the revolution, during the revolution, and after the revolution. Based on the above, this study systematically seeks to provide an accurate picture of the natural progression of the revolution through Algerian poetic discourse, with an indication of functional and artistic development.

Keywords: Stages of the revolution, Algerian poetic discourse, Algerian poetry, awareness, commitment.

* المؤلف المراسل.

تقديم:

قامت بين الأدب/الشعر علاقة جدلية وثقى؛ حيث أثر الأدب في الثورة بتحريض الجماهير وشحن الهمم واستنهاض العزائم وتوجيههم إلى أسباب الانعتاق، والثورة -طبعاً- أهم تلك الأسباب، فلمّا قامت تلك الثورة رصد الأدب بطولاتها وأحداثها، فلمّا حققت هدفها (الاستقلال) تغنى بأمجادها ورجالاتها. كما أنّ الثورة أثّرت في الأدب بأن حرّرت من قيود التعبير، وبعثت فيه الأمل، وبددت غشاوة اليأس الصفيقة التي كانت منسدلة عليه، وخدمته على مستوى الأسلوب، واللغة، والرؤية، وحتى القالب الشكلي والموسيقي.

بل إنّ دور الكلمة في الثورة كان أسبق من دور السلاح، وتأثير الكلمة لم يكن أهون أو أقلّ شأنًا من تأثير السلاح، فثورة الشعر أنتجت ثورة الشعب مثلما يقول محمد العيد:¹

ثورة الشعر أنتجت ثورة الشعب
وَعَادَتْ عليه بالآلاء
كُلٌّ مَنْ لَمْ يَتْرَ على الهون والذلة
داسسته أرجل الأقياء

ويقول محمد بن أحمد دويدة:²

كَمْ كَهْرَبَ الشَّعْرُ مَغْلُوباً على وطن
فَجَرَدَ السِّيفَ يَتْلُو آية الغلب

ويقول علي بن صالح:³

فكم رَفَعَ الشَّعْرُ الحماسي أُمَّةً
لها في بطون الغابرين صَدَى الْخَبَرِ
وكم أَشْعَلَتْ حَرْباً شَرَارُهُ شَاعِرٍ
يشيبُ لها رأسُ الصغير من الدُّعَرِ

ركوحا إلى ما ذكرنا، فإننا بحاجة إلى تحديد مفهوم الشعر الثوري، على الرغم من بدهية مفهومه فيما يبدو، فما المقصود بالشعر الثوري؟ وما مدارجه؟ وما هي مميزاته؟

إنّنا نفترض بداية أنّ الشعر الثوري هو ذلك الشعر الذي اتّخذ من الثورة التحريرية موضوعاً له، إمّا بالدعوة إليها، أو بوصف أحداثها ومعاركها ومخلفاتها، أو بتمجيدها وتخليدها. وعليه نجد أنّ الثورة في الشعر الجزائري أو الشعر الثوري منه، مرّت بثلاث مراحل أو مدارج، هي:

- قبل الثورة: وكان الهدف من الشعر الثوري ممثلاً في: شحن الهمم واستنهاض العزائم.
- أثناء الثورة: وكان هدفه فضلاً عن الهدف السابق: توثيق الأحداث والإشادة بالبطولات.
- بعد الثورة: وكان هدفه فضلاً عن الهدف السابق: تخليد الثورة، وتمجيدها، والتغني ببطولاتها، والاحتفاء بأبطالها.

1. الشعر الثوري قبل الثورة :**1.1. عتبة الشعر الثوري:**

جدير بالذكر أنّ الشعر الجزائري قبل الثورة ظلّ يدور في فلك الحسرة على أوضاع البلاد والضرر من شعبٍ ظلّ صامتاً لا ينبس، هادئاً لا يتحرك، راضياً لا يتمرد، هذا ما عبّر عنه السعيد الزاهري بقوله:

صَبَتْ ذُرْعاً بِرَحْبِ هَذَا الْوُجُودِ
وَيَقُومُ طُولُ الزَّمَانِ رُقُودِ

ويبكي رمضان حمود بحرقة على حياة شعبه المكدرّة و المنغّسة؛ حيث يقول في مستهلّ كتابه بذور الحياة: "إني لتعروني هزة، وينفطر قلبي، وتندشق كبدي، وأغيب عن رشدي، وأحسّ بألم شديد يدبُّب، كلما خلوتُ إلى نفسي ونظرت إلى حالتنا الحاضرة، وتفكرت فيما سنصير إليه إن نحن⁴، ويقول في قصيدة (دمعة على الأمة):⁵

بكيتُ على قومي لِضعفِ نفوسهم	على حَمَل أثقال العُلا والفضائل
بكيتُ عليهم، والحاشا متقطّع	بُكائي على طفلٍ ضعيف العزائم
بكيتُ عليهم، إذ رأيتُ حياتهم	مكدرّة مملوءة بالعجائب
ولم أبك جُبناً أو مخافة ناطق	فلي همّة مُنتامة للجلال
ولكنّ ما أبكي نفوسا ضعيفة	رأت خدمة الأوطان ليس بواجب

غير أنّه سرعان ما كفكف دموعه وتصبّر وتجلّد مثل غيره من الغيورين على هذا الوطن، فانبرى لبثّ اليقظة وتحريض بني جلدته على تحقيق النهضة بالاتحاد والتكاتف. "والحقّ أنّ الدعوة إلى اتحاد الكلمة والقضاء على كل مظاهر الخذلان والتفرق، كانت على طرف كلّ لسان مصلح آنذاك، وقد غدت عندهم هذه الدعوة ركيزةً أساسية من ركائز النهوض، ومن ثم أوجس الاستعمار من الحركة الإصلاحية خيفة، ورأى في دعوتها هذه أهدافا سياسية خطيرة، فراح يؤجج أسباب الصراع ويقف بجانب الجبهات ذات الطابع الانهزامي من طُرقية منحرفة، ومذهبية متعصّبة، وجمود فكري أرعن"⁶، غير أنّ رجال الحركة الإصلاحية والسياسية أصروا على توحيد الكلمة والمضيّ قدماً نحو تحقيق السيادة الوطنية.

وقد توالى الأحداث العالمية والوطنية، وأشركت فرنسا الشعب الجزائري في حروبها، خاصة ضدّ الألمان، مُمنية الشعب الجزائري بوعود وعهود دون نيّة الوفاء، وقد طالب الشعب بحقوقه باستمرار، يقول محمد العيد في قصيدة له سنة 1938:⁷

ما للحقوق إلينا غير واصلّة	وقد سمعنا بها من منذُ أزمان
هل عاقها البحرُ عتّا فهي عاجزة	عن قَطع مافيه من لُجّ وشُطان

ومع ذلك فقد تيقّنت النخبة وتيقّن معظم الناس من غدّ المستعمر ونقضه للعهود، وهو ماعبر عنه عديد الشعراء، مثل عبد العزيز الزناقي الذي يقول:⁸

أيقنتُ أنّ أُميمةَ الوفا نقضتْ	وُعودَها واستمّال قلبها اللؤمُ
--------------------------------	--------------------------------

هكذا قرّر الوطنيون من الشعراء وغيرهم الشروع في مرحلة الجِدّ بتنمية الجِسّ الوطني، وشحذ الهمم، واستنهاض العزائم، والدعوة إلى الثورة التحريرية، فلجؤوا إلى التقية والمواربة والرمز والإضمّار تارة، وهو الغالب الأعمّ، وإلى التصريح والجهر تارة أخرى، وهو نادرٌ، قلّما يجرؤ الشعراء على ذلك، خاصة قبل أحداث الثامن ماي. وظلّوا يتطلّعون إلى الانتفاضة الكبرى على مستوى الواقع المعيش، وعلى مستوى الخطاب الشعري . وكنموذج للدعوة التحريرية الإيحائية الرمزية قول محمد العيد آل خليفة سنة 1938 في قصيدة (أين ليلاي؟):⁹

أين (ليلاي) أينها	حيل بيني وبينها
هل قضت دين من قضى	في المحيّن دَينها

أصلت القلب نازها	وأذاقته	حينها
مُدّ تعرّفت سِرّها	وتعشّقت	زينها
كم تساءلت سالكاً	أنهجا	ماحوينها
لم يجبني سوى الصدى	أين ليلاي	أينها؟

والظاهر من هذه القصيدة أنّ مضمونها غزليّ محض، غير أنّه سرعان ما ندرك أنّ الظرف السياقي الذي كانت تعيشه الجزائر لا يتناسب مع الغرض الغزلي، يضاف إلى ذلك أنّ محمد العيد من رجال الحركة الإصلاحية وجمعية العلماء المسلمين التي ظلّ رجالها ينكرون على الشعراء خوضهم في الأغراض الذاتية/الشخصية كالغزل. حينئذ ندرك أنّ الشاعر تجنّب التعبير المباشر عن "الحرية" التي رمز لها باسم امرأة معشوقة خلّدها تراثنا الشعري (ليلى قيس بن الملوّح/ ليلى الأخيلية...)، هكذا استعارها محمد العيد للتعبير عن معشوقته المفقودة (الحرية) التي حال بينه وبينها المستعمر الغاشم. هذا ما يؤكّده ابن باديس لما نشر هذه القصيدة في مجلته (الشهاب) سنة 1938 حيث قال: "... فمن هي ليلى شاعرنا يا ترى؟ ليست له ونلاحظ جهراً صُراحاً لافتيكاك الحرية المستلبة، في فترة مبكرة من عمر الانتفاضة الوطنية، وهذا أيضاً ما ألفيناه لدى بعض الشعراء، خُذ لذلك مثالا للأبيات الشهيرة لابن باديس (شعب الجزائر مسلم):

يانشء أنست	رجاؤنا	وبك الصبح قد اقترب
خُذ للحياة سلاحها	وخض الخطوب ولا تهب	

وقد سبقهما في هذه الدعوة الجهرية الصريحة إلى الظفر بالحرية والسيادة الشاعر الجريء والطموح

رمضان حمود سنة 1927، حيث قال:¹⁰

لن ينال العزّ شعبٌ كالجماد	فاقد الاحساس خالٍ من شعور
لن ينال المجد شعبٌ بالرقاد	يترك اللب ويعنى بالقشور
إنما المجد قريّن بالجهاد	ووثام وثبات في الظهور
خبروني ببِلادٍ سَعِدَت	واستقلّت باختلاف ونفاق
خبروني ببِلادٍ شَقِيَت	باتّحاد، وائتلاف، ووفاق

2.1. ضمير الضمير ووعي الالتزام (مهاد الشعر الثوري):

ظلّ الشعر الجزائري قبل الثورة مطروفاً بطروفا الواقع المأساوي المعيش، مشروطاً بشروط النفع والإصلاح والالتزام بقضية الوطن، فقد سخر الشعراء شعرهم للتصدي للمستعمر، وما أفرزه من مظاهر البؤس والشقاء، بالفكر الإصلاحي النهضوي، ومن ثم آمنوا بصوت الجماعة، أو ما سمّيناه (ضمير الضمير)؛ أي التعبير بضمير الجماعة عن قضايا الجماعة انطلاقاً ممّا أملاه الضمير أو الحسن الالتزامي، وهو ما جعل صوت الذات أو التعبير عن التجربة الشخصية مستبعداً، ولذلك زهدوا وزهدوا في الأغراض الذاتية الشخصية. وقد كان ذلك بمثابة طريق معبّد للشعر الثوري فيما بعد الذي كرّس صوت الجماعة (النحن)؛ فالشعر الثوري لم ينبثق فجأة من فراغ، وإنما سبقه وعي النخبة من رجال الحركة الإصلاحية ومن الشعراء أنفسهم، ويتجلى ذلك من خلال الأغراض الشعرية والموضوعات المتناولة؛ وذلك أننا نلفي أغراضاً عرفت ترحيباً وانتشاراً، وأخرى عرفت تزهيدا

وانحساراً؛ فمن هذه التي عرفت تزهيذا وانحساراً الأغراض الآتية: الغزل، الفخر الذاتي، الرثاء، المديح، والهجاء؛ والسّر وراء ذلك أنّها أغراض لا تخدم المجتمع ولا القضية الوطنية (الجماعية)؛ فالظرف الذي كانت تعيشه الجزائر لا يسمح بالخوض في تلك الأغراض الشخصية/الذاتية، فقضية الجماعة أولى، ولذلك لم يحفل كتاب (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) بجزأيه 1926-1927 بقصائد الرثاء والمديح والهجاء، ويعلّل صاحبه ذلك قائلاً: "أخرجتْ هاته المواضيع لما بينها وبين الحقيقة اليوم من التباين، لما في المديح من التنازل عن الكرامة، وفي الهجاء من البذاءة، وفي الرثاء من التعداد الذي قلّمَا يصدق فيه قائله، والجميع في الأكثر لا يفيدنا معنى اجتماعياً، ولا غيره، وعلى الأخص في بيئتنا"¹¹ كما زهّد رجال الحركة الإصلاحية الشعراء في الخوض في الأغراض الذاتية، خاصة الغزل، الذي يمسّ بسمعة الشاعر الإصلاحي ووقاره ورسالته النبيلة، وفي هذا الشأن يقول الطيب العقبي:

دع ذكر سلمي وسعاد وانهض لإصلاح البلاد

ويقول ابن باديس:

ودع غزلاً في الغانيات فطلما سلاً عن وصال الغانيات

ويقول محمد اللقاني:¹²

ألا فدع التغزل في غوان فتلك طريقة

ومن صوت البلاد لنا نداء يكاد المرء يسمعه أينما العزائم

فهل لك يا (جزائر) من أبيّ يعزّ عليه قدرك أن يهونا

وقد استهجن رمضان حمود جملة الأغراض الذاتية، فقال: "... من تعلّقت نفسه بالمدح، فليمدح الأخلاق الفاضلة وينشرها بين قومه ويتشبّث بالفضيلة. ومن يميل إلى الهجاء، فليهج العوائد الفاسدة ويندّم الرذيلة بأنواعها. ومن يحبّ التغزل، فليتغزل في وطنه الجميل الذي يعيش فيه ويأكل خيراته"¹³ ولذلك عدّ الشعر الذي لا يحرك نفوس العامة، ولا يذكرها بواجبها المقدس ووطنها المفدّى، خيانةً كبرى وخنجرًا مسمماً في قلب المجتمع الشريف¹⁴.

وعموماً، فإنّ انصراف الشعراء عن تلكم الأغراض لم يكن كلياً، وإنّما عمدوا إليها متى دعت الضرورة إلى ذلك، وفيما يعني الجماعة والوطن والقومية، لا ما يعني الفرد وقضايا الشخصية، ولذا يذهب أبو اليقظان إلى أنّ الشاعر الحقّ "إنّ مدحَ فإنما مدح للتنشيط وتنمية عاطفة الصداقة والوداد، وإنّ أنبَ فإنّما هو لكبح جماح الشاردين من الأوغاد، وإنّ تحمّس فليرفع ما تنكّس من الرؤوس، وإنّ رثى فبكاءً على الفضيلة، وإنّ استعطفَ فصيانةً للكرامة والأقدار، وإنّ وصفَ فلإعتبار والاستبصار"¹⁵. هكذا كانت الأغراض مشروطة بشروط النفع الجماعي والتحريض الإصلاحي، وخدمة للفضيلة والمثل العليا التي تنهض بالمجتمع وتوقّظُه من غفلته وتنبّه من غفوته، تمهيداً للانتفاضة الكبرى.

ولعلّ الذي كبّح جماح ذاتية الشاعر الجزائري، آنذاك، ضميره الذي أبى عليه أن يخوض في قضايا الشخصية ويتخذ قضايا الشعب والوطن وراءه ظهيراً! وأبى أن يهيم في كل واد! وأن يُنيخ مطايه في كلّ مَرَبَعٍ شِعْبٍ من شِعاب الشعر، فهو، إذن، صوت الضمير يوجّههُ شَطَرُ النهوض والتغيير.

يحدّثنا رمضان حمود عن شعره وشعوره وصوت ضميره قائلاً:¹⁶

وَيُرْغَمَنِي وما في الأمر رَيْبٌ على نفع البلادِ بكلِّ
فَسَمِعاً يا ضميري كن قريراً رَضِيْتُ بِحُكْمِكَ العذبِ الزُّلالِ
فإني لا أملُ وسوفَ أسعى إلى رفع الستار عن
سقوط المرء خير من جمود كموتِ الحُرِّ خيرٌ من نكالِ
إليكم يا رجال العصرِ شعري إليكم، لِقْنُوهُ لِكُلِّ تال

وبهذا، عُدَّ الشعراء طائفةً مرهفة الحسّ أبى عليها شعورها أن تخضع لشيء غير واجب الضمير وإلهامات الطبيعة، حيث أوقفوا أنفسهم على بني جلدتهم، أو بني الإنسان أجمعين، يجاهدون بأفكارهم في سبيلهم، ليعلموا الجاهل، ويهدوا الضال¹⁷. هكذا لقي الشعر الاجتماعي والإصلاحي والسياسي ترحيباً واحتفاء وانتشاراً، فتمّ من خلاله وصف الواقع المزري، ونقد مظاهر التخلف الاجتماعي، وبيان سبل الخلاص المتمثل أساساً في التغيير، و"التغيير" مقوّم من مقومات "الثورة". وبهذا وجد الشعر الثوري الأرضية معبّدة والنفوس مهيّأة للاضطلاع بواجب المقاومة والتغيير، وقد تحقق بعض ذلك من خلال الشعر الثوري قبل الثورة الذي نهض بوظيفة التحريض، وتعبئة الجماهير، واستنهاض الهمم، وشحذ العزائم..

2. الشعر الثوري أثناء الثورة:

انتفض الشعب، وانتفض الشعراء يوقدون المناضلين لهباً موججاً بأناشيد تعبوية وقصائد ثورية حماسية عمّت الأرجاء، وأخذت بيد المكافحين في ميادين الوغى والمحتشدات والجبال والسجون، وقد كان المستعمر بالمرصاد لأدبائنا الوطنيين الثوريين، فمنهم من قضى نحبه وارتقى شهيداً، ومنهم من نجا وبالاستقلال أضى سعيداً. فمن أدبائنا الشهداء الذين اغتيلوا: أحمد رضا حوحو، محمد الأمين العمودي، عبد الكريم العقون، الشيخ العربي التبسي، الحبيب بناسي، الربيع بوشامة، هذا الأخير الذي كان يرسل بقصائده وأناشيده الثورية لصديقه العقيد عميروش -بطلب من هذا الأخير في كثير من الأحيان- يرفع بها معنويات الجنود، وهذا دليل قاطع لما للكلمة الثورية من سلطان وخطورة، ولذا سارعت فرنسا لوأدها وتصفية أصحابها.

هذا وقد رافق الشعر الثوري أحداث الثورة يصوّر بطولات الثوّار، ويوثّق معاركهم، ويكشف جرائم الاستعمار وفظائعها، ويصف رباطة جأش الوطنيين والمناضلين والمجاهدين. وقد هلّل الشعراء لهذا اليوم المشهود المبارك، يوم الفاتح من نوفمبر 1954، الذي كان حُلُم كلّ شاعر ومواطن، يقول أبو القاسم سعد الله عن هذا اليوم:¹⁸

كَانَ حُلُمًا واختماراً
كانَ لَحْنًا في السنين
كانَ شوقاً في الصدور
أَن نرى الأرض تثور
أرضنا بالذات، أرض الواعدين...
كانَ حُلُمًا، كانَ شوقاً، كانَ لَحْنًا
غيرَ أَنَّ الأرضَ ثارتْ

والهتافات تعالت

من رصاص الثائرين

وها هو ذا الشاعر علي بن صالح يصوّر لحظة إعلان الثورة عبر طلقة الرصاص الأولى، فباركتها المشاعر،

وتلقّتها بالبشائر، فكانت ساعة الحسم لاسترداد السيادة والحرية المسلوبة بشجاعة وبسالة واستماتة، يقول:¹⁹

إلى أن علا صوت البنادق صارخاً	بطلقة نارٍ باركتها
بشهر ربيع في نوفمبر خلّدت	لثورتنا الكبرى صدى وبشائر
إلى الثورة الكبرى، إلى المجد والغلا	إلى الهدف الأسى تُنادي
فثوروا إلى استرداد حقّ مقدّسٍ	وهيّا إلى استقلالكم وتآزروا
ولا تأملوا إلّا انتصاراً وعِزةً	وسيروا إلى أهدافكم وتباشروا
نهضنا ولبّينا كراماً، وإننا	ليوث كفاح، أنجبنا الجزائر
وحُضنا غمار الحرب، والصبر رائد	ففي كلّ شبرٍ في الجزائر ثائر
هجمنا هجوم المُستमित، وكيف لا	ونحن المنايا والسيوفُ البواتر

ويُصوّر لنا في قصيدة أخرى صوراً حيّة لانخراط الشعب في الثورة تلبيةً لنداء الوطن بكلّ حماسة

وشجاعة، ونلمس في هذه القصيدة وغيرها من القصائد الثورية انقشاع ضباب اليأس الذي خيم على قصائد

شعرائنا منذ عشرينيات القرن الماضي، وحلّ محلّ اليأس والتشاؤم استبشارٌ وتفاؤلٌ. يقول:²⁰

قُمنا نلّي النداء: لبيك يا وطني	نفسى فِداك، فعِش حُرّاً وهاك دمي
ثُرنا لمحقّ عدوّ غادرٍ، وبَدَتْ	معارك الفصل بين النور والظلم
معارك شتّها أبطالٌ جهتنا	وجيش تحريرنا في كلّ مُحْتَدَم
منها هجمنا على الأعداء في شغفٍ	وهيّا إلى استقلالكم وتآزروا
نَسوقُهم لِيُلاقُوا سوء مصرعهم	في بحر حرب بموج الموت مُلتطِم
في كلّ ملحمة كانت أشاوسنا	تُردي العدو، وترعى حُرمة الذِمم
كم طائراتٍ على صخر الجبال هَوَتْ	بجسم مُرتطم في إثر مُرتطم
"الله أكبر" دَوَتْ والعِدى انهزمت	تلقي الفنا بقضاً ماضٍ ومُنبرم
والجيشُ يزحفُ والمحتلّ في فزعٍ	والنصرُ يظهر بالرشاش لا الكلم
فلا ترى في فلول المُحتلّ سوى	نَدْلٍ أسيرٍ ومقتولٍ ومُنهزم

وقد حظيت ثورتنا بشاعر فحل عُرف بها وعُرفت به؛ فلُقّب بشاعر الثورة من جهة، ولم تُذكر الثورة إلّا

واسم مفدي زكريا على ألسنة ذاكرها من جهة أخرى؛ حيث استغلّ قريحته الفيّاضة في نسج قصائد رفيعة

المستوى، بديعة المحتوى، غلب عليها طابع الثورة والحماسة، "وهو طابع يستلزم إيقاعاً قوياً فيه رصانة وشدة

وجهارة وانفجار تتضافر من أجل توليدها الأوزان والتراكيب والألفاظ والأجراس (...) إيقاعها قويّ شديد، بل

صارخ عنيف مدوّ يكتظّ بالألفاظ العُنف والغلظة، وأجراس الصخب والغضب والانفجار، حتى لتبدو القصيدة

وكأنها نُظِمت في ميدان المعارك، مقتبسةً ألحانها من أصوات المدافع والبنادق، وناسجةً إيقاعها من دوي الانفجارات المتلاحقة وصراخ الكتائب الثورية الغاضبة الهادرة²¹، وعموماً، فإن شعر مفدي زكريا رائع فائق، متين رصين، طافح الجمال، عذب زلال، رفيع النسج، بديع النهج، وقصائده قبسة من أضواء حسّه الوطني، تثور معانيه ومبانيه بثوران بركان عاطفته الوطنية الثورية، فتغدو الألفاظ فخمة جزلة، والتراكيب مرصوفة مرصوفة، والصور تامة غير منقوصة، فينسجم الخطاب الشعري صوتيا ودالياً مع وقائع المعارك الملحمية، والأحداث الثورية.

وفخامة أسلوبه، وجمال نسوجه، متأتٍ، في أهمّ جوانبه، من التناص القرآني، فهو "يريد أن يكتب النص الشعري، النص "البيان"، نص المعجزة، مثلما كان نص القرآن الكريم "معجزة" و"بياناً" و"بلاغة"... ولذلك فقد كان شغوفاً بشعرية القرآن ومعانيه، ومنهراً معتبراً بقصصه والأحداث التاريخية العظيمة للمرحلة الإسلامية الأولى"²²، فكان من الطبيعي أن ينسحب ذلك على عموم شعر، والثوري منه على وجه الخصوص.

ولمفدي زكريا قصائد ثورية، وأناشيد نارية، نظم بعضها وهو حرّ طليق، وبعضها نظم بسجني "بربروس" و"البرواقية"، وتتمثل تلك القصائد في: قصيدة (الذبيح الصاعد) والتي صوّر فيها البطل الشهيد أحمد زيانا وهو يساق إلى المقصلة، وكذا قصيدة (زنزانة العذاب رقم 73)، و(قال الله)، (وتعطلت لغة الكلام)، (حروفها حمراء)، (اقرأ كتابك).

هكذا اتخذ مفدي زكريا رنة البارود وزناً، وعزف نغمة الرشاش لحناً، كما هو الحال في قصيدته المدوية (وتعطلت لغة الكلام) التي نظمها بسجن بربروس في شهر فيفري 1957، يقول:²³

نطق الرصاص فما يُباح كلامٌ	وجرى القصاص فما يُتاح ملامٌ
وقضى الزمانُ، فلا مردّ لحُكمه	وجرى القضاء، وتمّت
وسعت فرنسا للقيامة، وانطوى	يومُ النشور، وجفت
والقابضون على البسيطة أفصحوا	والكونُ باحٍ وقالت الأيامُ!
السيف أصدق لهجةً من أحرفٍ	كُتبت، فكان بيانها الإيهامُ
والنار أصدق حجّةً، فاكْتُبْ بها	ما شئتَ تُصعق عندها الأحكامُ
إنّ الصحائفَ للصفائح أمزها	والجبر حربٌ، والكلامُ كلامُ
عزُّ (المكاتب) في الحياة (كتائب)	زحفتُ، كأنّ جنودها الأعلامُ
خيرُ المحافل في الزمان جحافل	رُفعتُ، على وحداتها الأعلامُ
لغة القنابل في البيان فصيحة	وُضعت، لمن في مسمعِهِ صهامُ
و(لوافح) النيران خير (لوائح)	رُفعت، لمن في ناظرِهِ زُكام
و(روائح) البارود مسكٌ نوافح	سُجرتُ، لمن في منخرِهِ زُكام
والحقُّ والرشاش إن نطقاً معاً	عنّت الوجوه، وخرّت الأصنامُ
والزرعُ أخرج في الجزائر شطأه	فمضى، وهبّ إلى الحصادِ كرامُ
والشعبُ شقّ إلى الخلود طريقه	فوق الجماجم والخميسُ لِهَام
يا ثورة التحرير أنت رسالةٌ	أزليّة، إعجازها الإلهامُ

ويركب أبو القاسم خمّار بحرا هادراً، وإيقاعا صاحبا، ويتخيّر ألفاظا فخمة جزلة مناسبة لتصوير هبة الثوار ليلا، مشبّها إيّاهم بالبركان الذي يدكّ الراسيات، يقول في قصيدته (الزحف الأصم) 1960: ²⁴

ثُرنا وكان الليل معتكرا ونار الغيظ تزفر
والدرب أشلاء مبعثرة وأحقّاد تزمجر
للانتقام المرّ للتطهير للفجر المظفر
أرواحنا ودمائنا تفديك يا شمس التحرّر
الشعب بركان يدكّ الراسيات إذا تفجّر
الشعب إعصار الوجود إذا تمرّد لا يفكّر
يا ويح أعداء الشعوب إذا الشعوب مضت لتثار
هكذا تتجلّى، من خلال هذه القصائد وغيرها، عاطفة ثورية صادقة تناغمت مع أحداث الثورة المضفرة، كما نلاحظ انقشاع النظرة السوداوية واليأس والتشاؤم لدى الشعراء، وتحول تلك النظرة إلى تفاؤل وثقة في النفس واستبشار بغدٍ مشرق زاهر.

3. الشعر الثوري بعد الثورة:

أشرفت أرض الجزائر بنور الحرية والاستقلال في الخامس من جويلية 1962، فتعالت الهتافات، وعمّت الزغاريد، ورُددت الأناشيد بحلول يوم العيد؛ عيد الجزائر والحرية.

استمرّ حضور الشعر الثوري بعد الاستقلال مُخلداً الثورة، متغنياً ببطولاتها، محتفياً برجالاتها، فنُظمت قصائد ثورية سنّية، وتجددت بتجدّد ذكرى الثورة والنصر والاستقلال، كما عرف هذا النوع من الشعر قصائد مُطوّلة راعى فيها أصحابها الجانب الفنيّ بامتياز، نذكر منها: قصيدة (بردة الثائر في أرض الجزائر) نظمها صاحبها الشاعر علي بن صالح سنة 1963، أي بعد سنة من الاستقلال، عدد أبياتها مائة واثنان وثلاثون 132 بيتاً، بحسب عدد سنوات الاستعمار الفرنسي الذي جثم في الجزائر 132 سنة، إلى أن صُفّع بأيدي الثوّار الأحرار. نسجها على منوال بردة شرف الدين البوصيري (أ من تذكّر جيران...) على إيقاعها وقافيتها ورويّها، يقول فيها: ²⁵

يا مُطرب الشعب لجّن صوت مدفعنا	على الجبال بما يحلو من
لا عزف يُطرب أبطال الكفاح سوى	عزف المدافع في الأحراش والقيم
نمّق حديثك عن أحداث ثورتنا	وخلّ عنك حديث الركب في إضمّ
وازو الروائع من أي النضال ففي	الجزائر المعجزات العرّ من قيم
واذكّر مواطن جيران الجهاد، ودع	ذكرى مواطن جيران بني سلم
لجّن أناشيد تُعلي من بطولتنا	لا من بطولة رمسيس ولا إرم
فبالبطولات أحرزنا كرامتنا	تختال في شرف سام وفي عظم
بالتضحيات الغوالي حقّق الشعب ما	قد كان يبدو خيالا في سماء الحلم
وصار ما قد جنى الطيان من سفّه	يُحكى كأسطورة في الأعصر الدُهم

ومثلها (إلياذة الجزائر) 1973 والتي خصّص قسماً منها للجمال وآخر للجلال؛ أي جمال الجزائر وأمجادها، عدد أبيتها ألف بيت وبيت (وفي هذا إشارة فنيّة إلى ألف ليلة وليلة)، بين كلّ عشرة أبيات لازمة، صارت أشهر من نار على علم، هي:

شغلنا الوري وملأنا الدنا

بشعر نُرتِّلُه كَالصَّلَاةِ

تسابعه من حنايا الجزائر

ولا تفوتنا الإشارة هنا إلى أنّ الثورة قد صَقَلَتْ مواهب الشعراء، وسَقَّت أشعارهم من زوائها، وطَبَعَتْ قصائدهم بالتفاؤل بدل التشاؤم، مثلما ذكرنا، وألهمت شاعريتهم، وفَتَقَتْ قرائحهم، ونَمَّقَتْ نسوج أشعارهم، ولهذا قالت الأدبية زليخة السعدوي: "لقد تَمَيَّنَت ذات مرّة.. وأنا أسمع شعر مفدي زكريا الناري.. لو أنّ جميع أدباء الجزائر يلتحقون بالجمال حتى يكسروا أغلالهم، ويصهروا أرواحهم من لهب الثورة وإرادة الثائر"²⁶. كما لا تفوتنا الإشارة إلى أنّ الشعر الثوري تراوح بين العمودي والحرّ، والشعر الحرّ تحرّر من القيود التقليدية لحظة الهبة الشعبية التحررية من ريق الاستعمار الغاشم.

4. خاتمة:

إنّ تتبع سيرورة الخطاب الثوري من خلال الشعر الجزائري قدّم لنا صورة مكتملة للتطور الطبيعي لهذا الخطاب، وقد تبين لنا أنّ الشعر الثوري لم ينحصر في مرحلة الثورة فحسب، بل تدجّج عبر مراحل ثلاث: ما قبل الثورة؛ وكان الهدف منه تعبئة الجماهير وشحن الهمم واستنهاض العزائم. وأثناء الثورة؛ وكان الهدف منه فضلا عن الهدف السابق توثيق الأحداث والمعارك، وتصوير البطولات، والإشادة بالأبطال. وما بعد الثورة؛ وكان الهدف منه فضلا عن الهدف السابق؛ تخليد الثورة، والتغني بأمجاد الوطن، والاحتفاء بالمناضلين والثوار. وقد سجّلنا جملة من النقاط، نذكر منها: أنّ الخطاب الثوري بدد الغلالة السوداء (اليأس والتشاؤم) التي هيمنت على عموم الشعر الجزائري خلال العشرينيات والثلاثينيات، فساهم في تجديد نفس الشعر الجزائري على مستوى الرؤية. كما سجّلنا أنّ التوجّه الثوري خدم الشعر على مستوى الأسلوب، واللغة، والرؤية، وحتى القالب الشكلي (الشعر الحرّ) والموسيقى، مع العلم أنّ كثيرا من الشعراء وقعوا في مطبّ التقريرية والخطابية بتركيزهم على رسالة الشعر، ومع ذلك فإنّ كثيرا من الشعراء أعادوا للشعر جماله ورواه وبهاء بتوجههم الثوري مثلما فعل مفدي زكريا، ومحمد العيد آل خليفة، وأبو الحسن علي بن صالح. على أنّ الاهتمام بالبعد الجمالي تحقق للشعر الثوري بعد الاستقلال، حيث كانت الظروف مناسبة للاهتمام بهذا البعد، وقد قدمنا نموذجين للشاعرين مفدي زكريا وعلي بن صالح، فالأول أبدع في رائعته إلياذة الجزائر، والثاني أبدع في رائعته (بُرْدَة الثائر في أرض الجزائر)، وكلاهما موشّح أسلوبياً، طافح شعرياً، سني لغوياً، موفّق تناصياً.

وعموماً، نوّكّد على ضرورة تضافر الجهود لجمع القصائد المنسية المتناثرة في صفحات الجرائد العريقة، والتي وطّأت للخطاب الشعري الثوري في وقت مبكر، يضاف إلى ذلك ربط بعض الأغراض بظروفها السياقية،

خصوصا غرض الغزل الذي اتخذته الشعراء تقيّة للتعبير عن الحرية والثورة والاستقلال، مثلما فعل محمد العيد في قصيدته (أين ليلاي).

قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو الحسن علي بن صالح، ديوان أبي الحسن علي بن صالح، المؤسسة الوطنية للكتاب، دط، الجزائر، 1984.
2. أبو القاسم خمار، أوراق، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دط، الجزائر، 1967.

3. أبو القاسم سعد الله، النصر للجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط3، الجزائر، 1986.
4. أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، ط5، الجزائر، 2007.
5. أبو القاسم سعد الله، محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث، دار المعارف، ط2، مصر، 1975.
6. أبو اليقظان، ديوان أبي اليقظان، نشر جمعية التراث، غرداية، ط2، الجزائر، 1989.
7. رمضان حمود، حقيقة الشعر وفوائده، جريدة الشهاب، المطبعة الجزائرية الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، ع 82، 03 فيفري 1927.
8. زليخة السعودي، انطلاق الأدب الجزائري، ضمن كتاب شريط أحمد شريط، الآثار الأدبية الكاملة للأديبة زليخة السعودي، دار القصبة للنشر، دط، الجزائر، 2009.
9. شريط أحمد شريط، مباحث في الأدب الجزائري المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، الجزائر، 2001.
10. الشريف مربي، الشاعر الشهيد الربيع بوشامة، حياته وأثاره، الوكالة الإفريقية للإنتاج السينمائي والثقافي، ط1، الجزائر، 2009.
11. عبد الملك بومنجل، الموازنة بين الجزائريين مفدي زكريا ومصطفى الغماري، دار قرطبة، ط1، الجزائر، 2015.
12. محمد العيد آل خليفة ديوان محمد العيد آل خليفة، دار الهدى، دط، الجزائر، 2010.
13. محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، إعداد وتقديم: عبد الله حمادي، دار بهاء الدين، ط2، الجزائر، 2007.
14. محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، ج4، دار البصائر، دط، الجزائر، 2011.
15. محمد ناصر، رمضان حمود حياته وأثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1985.
16. مفدي زكرياء، اللهب المقدس، موفم للنشر، دط، الجزائر، 2007.

هوامش وإحالات المقال

- ¹ محمد العيد آل خليفة ديوان محمد العيد آل خليفة، دار الهدى، دط، الجزائر، 2010، ص 398.
- ² محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، ج4، دار البصائر، دط، الجزائر، 2011، ص 327.
- ³ أبو الحسن علي بن صالح، ديوان أبي الحسن علي بن صالح، المؤسسة الوطنية للكتاب، دط، الجزائر، 1984، ص 12.
- ⁴ محمد ناصر، رمضان حمود حياته وأثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1985، ص 29.
- ⁵ المرجع نفسه، ص 165.
- ⁶ المرجع السابق، ص 34.
- ⁷ أبو القاسم سعد الله، محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث، دار المعارف، ط2، مصر، 1975، ص 264.
- ⁸ محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، ج4، 245.
- ⁹ محمد العيد آل خليفة، ديوان محمد العيد آل خليفة، ص 41-42.
- ¹⁰ محمد ناصر، رمضان حمود حياته وأثاره، ص 171-172.
- ¹¹ محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، إعداد وتقديم: عبد الله حمادي، دار بهاء الدين، ط2، الجزائر، 2007، ص 73.
- ¹² المرجع نفسه، ص 112.
- ¹³ رمضان حمود، حقيقة الشعر وفوائده، جريدة الشهاب، المطبعة الجزائرية الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، ع 82، 03 فيفري 1927.
- ¹⁴ المرجع نفسه، ع 108، 04 أوت 1927.
- ¹⁵ أبو اليقظان، ديوان أبي اليقظان، نشر جمعية التراث، غرداية، ط2، الجزائر، 1989، ص 60.
- ¹⁶ محمد ناصر، رمضان حمود حياته وأثاره، ص 196-197.
- ¹⁷ ينظر: محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج2، ص 25-26.
- ¹⁸ أبو القاسم سعد الله، النصر للجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط3، الجزائر، 1986، ص 29.
- ¹⁹ أبو الحسن علي بن صالح، ديوان أبو الحسن علي بن صالح، ص 14.
- ²⁰ المرجع نفسه، ص 121-122.
- ²¹ عبد الملك بومنجل، الموازنة بين الجزائريين مفدي زكريا ومصطفى الغماري، دار قرطبة، ط1، الجزائر، 2015، ص 206.
- ²² شريط أحمد شريط، مباحث في الأدب الجزائري المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، الجزائر، 2001، ص 157.
- ²³ مفدي زكرياء، اللهب المقدس، موفم للنشر، دط، الجزائر، 2007، ص 41، 42، 44.
- ²⁴ أبو القاسم خمار، أوراق، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دط، الجزائر، 1967، ص 18.

²⁵ أبو الحسن علي بن صالح، ديوان أبي الحسن علي بن صالح، ص 122-123.

²⁶ زليخة السعودي، انطلاقة الأدب الجزائري، ضمن كتاب شريط أحمد شريط، الآثار الأدبية الكاملة للأديبة زليخة السعودي، دار القصبة للنشر، دط، الجزائر، 2009، ص 365.